

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه: 50)
د. عبد الله عبد الكريم أستاذ علم الفسيولوجيا العصبية

إن كل شيء في الخليقة هو إعجاز كل خليّة، كل عضو، كل نشاط فيها؛ لكن الإعجاز هنا في الهداية بعد الخلق، هنا الهداية ليست الهداية الإيمانية، بل الهداية إلى أمور تضمن الحياة والديمومة واستمرار الأجيال. لنرى ماذا يقول المفسرون: قال ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه، وعنه: جعل الإنسان إنساناً والحمير حميراً والمشاة مشاة. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وسوى خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبير في قوله: (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولما للكلب من خلق المشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من المنافع، وهياً كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والتمكين (1). ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه الملائق به، على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته. (ثم هدى) كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقات. فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه. حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم، من العقل، ما يتمكن به من ذلك. وهذا كقوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

فَالَّذِي خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْطَاهَا خَلْقَهَا الْحَسَنَ، الَّذِي لَا تَقْتَرِحُ الْعُقُولُ فَوْقَ حَسَنِهِ، وَهَدَاهَا لِمَصَالِحِهَا، هُوَ الرَّبُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ (2). يق ول الإمام القرطبي: قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: أعطى كل شيء زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكره ومطعمه ومشربه ومسكنه. وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الألفة والمجتمع والمناكحة.

وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، وهده لما يصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صلاحه، وهده لما يصلحه. وأعطى كل شيء صورته: لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولما خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدره تقديراً.

وقال الضحاك: أعطى كل شيء من المنفعة المنوطة به المطابقة له. يعني اليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع. وقيل: أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة. وقال الفراء: خلق الرجل للمرأة، ولكل ذكر ما يوافق من الإناث، ثم هدى الذكر للأنثى. فالتقدير على هذا: أعطى كل شيء مثل خلقه (3).

وفي زاد المسير للإمام ابن الجوزي:

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

) فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أعطى كل شيء صورته، فخلق كل جنس من الحيوان على غير صورة جنسه، فصورة ابن آدم لا كصورة البهائم، وصورة البعير لا كصورة الفرس، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس، وبه قال مجاهد: وسعيد بن جبير، والثاني: أعطى كل ذكر زوجة مثله، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس: وبه قال السدي، فيكون المعنى: أعطى كل حيوان ما يشاكله. والثالث: أعطى كل شيء ما يصلحه، قاله قتادة. وفي قوله: (ثُمَّ هَدَى) ثلاثة أقوال: أحدها: هدى كيف يأتي الذكر الأنثى، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير. والثاني: هدى للمنكح والمطعم والمسكن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. والثالث: هدى كل شيء إلى معيشتة، قاله مجاهد. فإن قيل: ما وجه الاحتجاج على فرعون من هذا؟ فالجواب: أنه قد ثبت وجود خلق وهداية، فلا بد من خالق وهدا (4). ولو تمعن في الكائنات الحية نرى أن الهداية هذه جلية في عدة أمور، وهي قدرة هذه الكائنات على تناول طعامها أو الحصول على رزقها، ثانيًا بناء مساكنها وثالثًا ديمومة أجيالها، أو الحفاظ على جنسها، فنبداً بالأخيرة. من العوامل المهمة وربما أهمها للمحافظة على النوع هو التقاء الذكر والأنثى في المعاشرة، وإنها المقدمة لتلقيح البويضة، والدافع لهذا موجود في جميع الحيوانات في أوقات

مختلفة، وربما أقوى وأطغى ما يكون في الإنسان، وأنه المشغل المشاغل لبني البشر منذ الأزل، فلولا هذه الشهوة المتأججة والرغبة الجامحة الجاذبة بين الذكر والأنثى - لم يكن أحد يقدم على هذا العمل، بل كان مدعاة للسخرية. ثم لنبدأ بالبويضة المخصبة - أي الخلية الأولى التي تنقسم وتتكاثر لتكوين الكائن الحي - من الحيوانات البسيطة إلى الإنسان يهيئ الخالق - سبحانه - لها ما يضمن لها أن تخصب، وهي الخطوة الأولى لبداية كائن جديد، ولولا عملية الإخصاب فلن ينشأ هذا الكائن، ففي الإنسان المقذفة الواحدة من المسائل المنوي تحتوي على ثلاثمائة إلى خمسمائة مليون حويين منوي (Sperm)، بالرغم أن واحداً فقط من كل هذه الجموع الهائلة هو الذي يخترق البويضة ويخصبها، لأن كثيراً من هذه الحويينات تتساقط وتهلك وهي تخوض سباقاً طويلاً نحو البويضة، وفي الأنثى فإن المبيض ينتج خلال فترة خصوبة المرأة عدة آلاف من البويضات لكن لا تصل إلى مرحلة النضوج والطرح إلا عدة مئات منها، كل هذا لضمان إنتاج بويضة مخصبة، وهذا ينطبق على جميع الحيوانات الثديية، وفي عالم الحيوان الأمثلة على هذه كثيرة جداً، فالذباب المنزلي ينتج كمية من البويضات المخصبة لو توفرت لها الظروف المثالية وفقست كلها، لغطى الذباب الأرض بسمك عدة مترات خلال شهر واحد، ودودة الإسكارس في معدة الإنسان تطرح يوميًا عشرين ألف بيضة، والضفدعة الواحدة تطرح عدة ألوف من البويضات كل مرة، وكل هذا ليضمن كل ذوق استمرارية أجياله. وماذا بعد طرح البويضة المخصبة؟ إن البيضة المخصبة تحتاج إلى مواد غذائية لكي تبدأ بالانقسامات وهي أول خطوة من مسيرة الحياة. هو الله - سبحانه وتعالى - الكائنات الحية لأنماط مختلفة من السلوك لضمان هذا، أو هي لها المكان الملائم لها، ففي الإنسان بعد أن تتلقح البويضة داخل قناة الرحم (قناة فالوب) تبدأ بالانقسامات الأولية وتدفعها حركات الأهداب في جدار القناة باتجاه الرحم، حيث تبدأ بتكوين ما يشبه الجذور التي تمدّها في جدار الرحم، لتمتص المواد الغذائية المهيأة لها كبدائية، وهذه المواد الغذائية قد بدأت بالتكون منذ نهاية دورة الطمث، حيث يثخن جدار الرحم ويتم تزويده بأوعية دموية مكثفة لتزود الجدار بالأحماض الأمينية والسكريات والدهون اللازمة للانقسامات (BLASTULA) ثم تبدأ الجذور بالانغراس لتكوين المشيمة ثم الحبل السكري لاحقاً، ليستمر نمو الجنين على مدى تسعة أشهر يتزود من الدم بجميع ما يحتاجه لحين تكامل الأعضاء واستعداد الجنين للخروج إلى الحياة. كل الثدييات حباها الله بالرحم الذي يحتضن البويضة المخصبة، ويرهاها ويزودها بكل احتياجاتها، إلى أن يصبح مخلوقاً كاملاً الخلق. فما أروع هذا المكان، ولو خضنا في تفاصيل التفاعلات والهورمونات التي تفرز خلال فترة إعداد الرحم للحمل وأثناء الحمل لرأيت العجب، ولربما يكون هذا موضوع مقال آخر - إن شاء الله.

ولما زال الإنسان منذ بداية عصر النهضة العلمية يحاول اختراع مكان يضع فيه البويضة المخصبة لتنمو فيه وتترعرع ولكن بلا جدوى، أليست هذه هداية ربانية. وعندما يكتمل الجنين ويخرج إلى الحياة فله قصة أخرى سأتى لذكرها. إن تأمين الغذاء والمكان الآمن للبيضة المخصبة في عالم الحيوان من ديدع الإعجاز، الطريقة السابقة هي في الثدييات، أما في الطيور فنرى أن البيضة تحتوي على البويضة المخصبة التي لا تشكل منها إلا جزءاً ضئيلاً جداً، والباقي من بياض البيضة وصفارها مواد غذائية تتحول إلى جنين بعد بدء انقسامات البويضة المخصبة. هنا أيضاً وفر الله - سبحانه - للبويضة المخصبة ما تنمو عليه إلى أن يتم تكوين الجنين ويخرج الكتكوت ليقتدي بأبيه وتعلمه طريقة التقاط الحبوب، أو تجلب له الأم والدأب طعامه وتضعه في فمه إلى أن يعتمد على نفسه.

وهناك سلوكيات غريبة تسلكها الحشرات لضمان الغذاء للانقسامات البويضة؛ فمنها ما يغرس البيضة تحت جلود الأبقار بواسطة آلة خاصة تمتلكها فتتغذى البويضة على الأنسجة تحت الجلد وتمر بمراحل النمو إلى أن تتكون حشرة بالغلة فتخترق الجلد وتبدأ بالطيران، ومنها ما تقذف بيوضها في أنوف الأغنام حيث تجد البيضة الأنسجة الرخوة فتتنمو عليها إلى أن تتحول إلى حشرة كاملة، ومنها ما تضع بيوضها على أوراق الشجر في فترة الخريف ثم تفرز على قاعدة السويق الذي يحمل الورقة مادة صمغية يمنع سقوطها، وتلتف الورقة على البيضة في فترة الشتاء وتحافظ عليها من الظروف الجوية إلى أن يحين وقت الربيع فتتنمو براعم جديدة في مكان الورقة وحينها تفقس البيضة وتتغذى على هذه البراعم إلى أن تتحول إلى حشرة كاملة. لو كنت من سكان الصحراء أو الريف أو كنت من هواة السباحة فيها - فإنك تصادف خنفسة تدفع بكرة صغيرة بقطر سنتيمترين تقريباً وأحياناً تتعاون مع خنفسة أخرى ولو تابعتها سترى أنها وضعتها في مكان أمين بعيداً عن الفضوليين. ماذا تعتقد؟ هل أنها أصبحت من هواة كرة القدم، مجارة للعصر؟ إنها تؤدي وظيفة أنبل من هذا. إن هذه الكرة تتكون من روث الحيوانات وهي غنية بالمواد الغذائية الملائمة لنمو يرقات الحشرات، وضعت فيها بيضتها وصنعت منها كرة ووضعتها في مكان آمن، حيث إن البيضة تفقس وتنقسم خلاياها مستمدة غذاءها من المواد الغذائية المتوفرة في هذه الكرة، إلى أن تصل إلى مرحلة الاعتماد على النفس.

ومن الحشرات ما تبني كوخاً هرمياً صغيراً، في قمته فتحة صغيرة تقوم الحشرة هذه باصطياد حشرة أخرى وتقتلها وتضعها في الكوخ، ثم تضع بيضها عليها، وتقوم بإغلاق الفتحة العليا للكوخ وعندما تفقس البيضة تتغذى الحشرة الصغيرة على الحشرة الضحية إلى أن تصبح حشرة كاملة فتخترق القمة العليا وتبدأ بالطيران. إن هذه الأمهات ستموت ولن ترى الأجيال القادمة، مع هذا فإنها تسلك هذه السلوكيات الغريبة للمحافظة على ذوعها من الانقراض، وغالباً أنها لا تدري لماذا تفعل هذا، لكنه إلهام رباني مبرمج في أدمغتها، مثل برامج الكمبيوتر تنفذ، فهل هناك هداية أروع من هذا؟! ولو فصلنا في هذه السلوكيات يمكن أن نكتب فيها مجلدات. وبعد أن يتكامل الجنين ويخرج إلى الدنيا في كثير من الكائنات - وبالذات الثدييات - فإن أول شيء مهم يجب أن يمارسه ولما يستطيع أحد أن يعلمه إياه تعليم هو الرضاعة، فإن لم يجده فمصيره الموت، فالمولود من الثدييات يجيد الرضاعة، فمن علمه هذه، إما أن تكون هداية ربانية، وبعد الولادة فإن كثيراً من وليد الحيوانات - وكذلك الإنسان - يحتاج إلى رعاية زمنية متفاوتة وربما يكون الإنسان أطولها وأرهقها للآدم، وهنا تبدأ الأمومة، وما أدراك ما الأمومة؟ إنها حقاً معجزة، يتحول خلالها القط إلى أسد، والدجاجة إلى نمر، وتظهر سلوكيات عجيبة في الحيوانات لحماية الوليد الصغير ورعايته، وكلها عوامل لاستمرارية الأجيال ومنعها من الانقراض.

إن الرعب والرهبة التي في نفس القط تجاه الكلب تتلاشى في فترة الأمومة وتلاحظها تحتضن أولادها وترضعهم معظم أوقاتها، وإذا اقترب منهم كلب تراها تكشف عن أنيابها وتبرز مخالبها وتنفخ وتتحدى وتتأهب للهجوم على الكلب، بينما هي في أوقات غير الأمومة تطلق أرجلها للريح، وتعدو مسرعة لتنجو بجلدها - بمجرد رؤية الكلب من بعيد - والدجاجة في فترة الأمومة تتحدى القط والكلب وأي كائن آخر يقترب من صغارها، وهناك من الثدييات ما تحمل صغارها في أكياس تحت بطنها طيلة فترة إرضاعها، وهناك عقارب تحمل صغارها على ظهرها إلى أن تستطيع الاعتماد على النفس. ومعظم الطيور تجلب لصغارها الطعام ويعونها لم تتفتح على الدنيا بعد. فتلقمه إياها والصغار لا تعرف غير فتح فمها وابتلاع الطعام. وفي إحدى القصص العصرية عن الحروب لفت نظري منظر له مغزى رائع عن الأمومة، المشهد هو مجموعة من اللاجئين في قارب هاربين من الحرب وتطاردهم طائرة مروحية عسكرية تطلق عليهم الرصاص، وفي القارب امرأة تحتضن وليدها وتلتف عليه وتغطيه بجسدها، الأم تعلم أن في هذا العمل حتفها ولكنها لا تتردد فيه لتموت هي عسى أن يعيش وليدها، فهل هناك معجزة مثل معجزة الأمومة، إنها تتحدى جميع المبادئ المادية التي تعرف في الخليقة، إن الحياة نتاج المادة لن تضحي بنفسها لغيرها، لكنها معجزة الخالق. إنها الأمومة، ولهذا يقال: إن الأمومة تجمع المتناقضات؛ فالآدم في حالة المخاض تعاني آلاماً لا تطاق، لكنها سعيدة بمولودها الذي تراه بعد هنيهة. ولهذا كانت الحنة تحت أقدام الأمهات.

المسألة الثانية: هي السلوكيات التي تسلكها الحيوانات للحصول على رزقها، فجميع الحيوانات تسعى حثيثاً للحصول على ما تقتات عليه وتسدد رمقها، ولهذا نرى أن الأجناس والأنواع المختلفة من الحيوانات لها تصرفات وحركات ذات مهارة عالية، وربما لو حاول الإنسان العادي أن يقلدها فلن يستطيع. فالعنكبوت تبني بيتاً خفيفاً وإهياً لكنه ذو هندسة جميلة وتتحرك حركات بزوايا محدودة ومسافات معلومة لعمل خيط، وآخر بزوايا أخرى ومسافة أخرى، والثانية والثالثة والرابعة إلى أن تراها قد أكملت شكلاً هندسياً جميلاً، ثم تراها تجلس في أحد الزوايا منتظرة حشرة تقع في هذا الشرك، فتسارع إلى لف خيوط أخرى حولها وتكبلها حتى تصبح بلا حول ولما قوة، ثم تغرس أنيابها في جسمها وترتشف عصارة جسمها فلا يبقى فيها إلا القشرة الخارجية، وأنت تنظر إليها وكأنها سليمة ولما تدري أن العنكبوت قد امتصت كل عصارتها. ومثل آخر: يرقة أسد النمل؛ فإنها تملك فكوكاً طويلة وتبني في الأرض وبالذات في المناطق ذات التراب الناعم - حفرة على شكل قمع في شكل هندسي جميل، ولو شاهدت أحد الأفلام التي تصور عملية البناء من أولها لآخرها لسجدت لرب العالمين، كيف ألهم هذا الكائن هذه الحركات العجيبة والتي بها تقذف بذيلها وأرجلها التراب، وتحضر وتكرر العملية إلى أن تبني هذا الشكل الهندسي الرائع، ولماذا هذا الشكل بذات. إنها مصيدة فإن هذه اليرقة تختبئ في قاع الحفرة هذه حتى إذا مرت نملة أو حشرة أخرى من حافة هذه الحفرة تنزلق إلى قعرها، وسطح الحفرة من الداخل أملس جداً بحيث كلما حاولت الضحية التسلق والخروج من الحفرة تسقط ثانية إلى القعر قبل أن تصل إلى الحافة. فتخرج يرقة أسد النمل من مخبئها مبتهجة لتحتفل بالوليمة.

المراجع:

- 1 - مختصر تفسير ابن كثير (الجزء الثاني) ص 483
- 2 - تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن السعدي (الجزء الخامس) ص 163
- 3 - تفسير القرطبي للإمام أبي عبد الله القرطبي (الجزء الحادي عشر) ص 85
- 4 - زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (الجزء الخامس) ص 203